

الحصة الرابعة: الأدب العام (أدب الرحلة إلى العالم الآخر)

الرحلة إلى العالم الآخر في الأدب: رمز كوني وتجربة إنسانية مشتركة

تعد فكرة "الرحلة إلى العالم الآخر" من أبرز الرموز الأدبية التي تعكس هواجس الإنسان الوجودية في مختلف الثقافات والحضارات. فهي تتجاوز كونها مجرد سرد لتجارب ما بعد الموت، لتجسد صورة رمزية تعبّر عن سعي الإنسان الدائم للخلاص والبحث عن المعنى الأسمى الذي يتجاوز حدود الواقع المألوف. هذه الفكرة، التي تتكرر في النصوص الأدبية المتنوعة، تعكس جوهرًا إنسانيًا موحدًا، يتمثل في رغبة الإنسان في المعرفة والتحول والاعتناق من قيود الحياة الدنيوية.

في إطار الأدب العام، الذي يعنى بدراسة الظواهر الأدبية المشتركة عبر الثقافات، تتجلى وحدة التجربة الإنسانية على الرغم من اختلاف الأزمان والأمكنة واللغات. إذ غالبًا ما تنشأ فكرة الرحلة في ظل ظروف تاريخية واجتماعية متقاربة، فتثمر أعمالاً أدبية متعددة الأشكال ومتشابهة الجوهر، مثل ملحمة جلجامش، رسالة الغفران، الكوميديا الإلهية، مسرحية الضفادع، قصة أرداويراف نامه، التوابع والزوابع، وحديث عيسى بن هشام. وتستثمر هذه النصوص الخيال الرمزي كأداة للتأمل الفلسفي، والنقد الاجتماعي، وإعادة تقييم القيم والمعايير.

يبرز البعد النقدي لهذه الرحلة بشكل خاص في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والكوميديا الإلهية لدانتي أليغييري، حيث يعيد كل منهما تشكيل مصير الشخصيات في العالم الآخر وفق رؤى تخالف التصورات الدينية التقليدية في زمانها. ففي رسالة الغفران، يستخدم المعري السخرية والحوار الجدلي لوضع شخصيات مثيرة للجدل في الجنة، معبرًا بذلك عن نقد لاذع للتعصب والنفاق الديني والاجتماعي. أما دانتي، فيُصوّر في كوميديته رحلة عبر الجحيم والمطهر والفردوس، معاقبًا ومكافئًا الأرواح وفق منظومة أخلاقية لاهوتية، ويُدين من خلال ذلك فساد السلطة الدينية والسياسية.

ورغم التباين في الأسلوب بين المعري الذي اتخذ النثر الساخر، ودانتي الذي اعتمد الشعر اللاهوتي المنظم، فإن كلا العاملين يستخدمان رحلة الآخرة كوسيلة لفهم الذات، ومساءلة الواقع، وانتقاد السلطة، مما يحول الرحلة إلى رمز إنساني عميق يجمع بين البعد الروحي والرؤية الفكرية.

إن استمرار حضور فكرة الرحلة إلى العالم الآخر عبر مختلف آداب الشعوب يدل على أنها ليست مجرد موضوع أدبي متكرر، بل رمز كوني إنساني يجمع الناس، مثل الحب والتضحية، مؤكدًا أن الأدب لغة عالمية تعبّر عن الإنسان في جوهره، مهما اختلفت لغاته وثقافته.